

الذي حوّل الغرب شمالاً

الكاتب



حسن مدن

سنبداً بالقول مباشرة إن الرجل، وبالتحديد الروائي، الذي حوّل الغرب إلى شمال، والشرق إلى جنوب، هو المبدع السوداني الطيب صالح. لنعد إلى كل أدبياتنا الصادرة في بلدان المشرق وهي تعالج علاقتنا بالآخر الأوروبي، سنجدها كلها، ونقول ذلك شبه جازمين، نتحدث عن ثنائية الشرق والغرب. نحن الشرق وأوروبا هي الغرب، الذي اشتبكنا به في منظومة من العلاقات المعقدة المتداخلة عبر قرون، سواء أكان بعض هذا الغرب هدفاً للفتوحات الإسلامية، أو كنا نحن هدفاً لحملاته الاستعمارية التي تمكنت من غالبية بلداننا العربية، بما ترتب على ذلك من آثار متناقضة. ومع بدايات ما تعارفنا على وصفه بـ «النهضة العربية» في مجال الفكر، قبل أن يجري الارتداد عنها أو عن أوجه كثيرة فيها للأسف، ظلّ الآخر محصوراً، في أذهاننا، بهذا «الغرب»، ولم نلتفت إلا متأخراً إلى أن الآخرين كثر، وليسوا كلهم في الغرب بمنطقة الجغرافيا، بل إنهم يشاركوننا «الشرق» نفسه، جغرافياً وفي بعض أوجه التكوين الثقافي والتاريخي، ومن الأمثلة: الهند واليابان والصين وغيرها.

نعود إلى الطيب صالح الذي حوّل الغرب إلى شمال، والشرق إلى جنوب، والآية الساطعة على ذلك روايته الأشهر والأهم «موسم الهجرة إلى الشمال». بدءاً من العنوان أخذنا الكاتب إلى الشمال، الذي هو نفسه ما أطلقنا عليه الغرب. وبين أول من التفت إلى ذلك الراحل جورج طرابيشي في تناوله لتلك الرواية، في دراسة حواها كتابه «شرق وغرب.. رجولة وأنوثة»، حين لاحظ، بنباهة، أنه في اللحظة التي أمكن فيها لصوت من السودان، ومن قلب القارة السمراء، الذي هو الطيب صالح نفسه طبعاً، «أن يفرض نفسه على أدب الشرق العربي»، فإنه لزم مراجعة ما استقرّ من التقسيمات والثنائيات، فلو كان كاتب من بلد عربي مشرق هو من وضع الرواية، لكان العنوان المنسجم مع الرؤية السائدة هو «موسم الهجرة إلى الغرب».

في ذهن بطل الرواية الذي هو حسب أحداثها أول سوداني يرسل في بعثة إلى الخارج، وأول سوداني يتزوج إنجليزية لا بل وأوروبية على الإطلاق، أنه آت من الجنوب نحو الشمال، كيف لا وهو الذي نشأ بمحاذاة نهر النيل «الذي لولاه لم تكن

بداية ولا نهاية، يجري نحو الشمال، لا يلوي على شيء. قد يعترضه جبل فيتجه شرقاً وقد تصادفه وهدة من الأرض فيتجه
«غرباً ولكنه آجلاً أو عاجلاً يستمر في مسيره الحتمي نحو البحر، في الشمال

madanbahrain@gmail.com

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024